جامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي
معهد العلوم الإسلامية
السنة ثانية حضارة

محاضرات مقياس:

الآثار والفنون الإسلامية

موجهة لطلبة السنة ثانية حضارة

أستاذ المقياس:
الدكتور الجباري عثماني

مقدمة

علم الآثار أو الاركيولوجي "Archaeology" هو العلم الذي يُعنى بدراسة الآثار والمخلفات المادية الباقية من عصور ما قبل التاريخ والعصور القديمة من الناحية الفنية والتاريخية ، وأحيانا يُعرَّف علم الآثار بأنه علم الحضارات الإنسانية والمجتمعات البشرية التي اندثرت وذلك اعتمادا على الحفائر الأثرية التي تنفذ في التلال والمواقع الأثرية ، والبقايا المادية والآثار والوثائق . وكلمة "أركيولوجي " دخلت إلى اللغات الأوربية الحديثة من اليونانية وهي كلمة مكونة من لفظين "Archaios" أو "Arkhaios" بمعنى قديم و "Logos" بمعنى بحث أو موضوع أو علم، ووفقا لهذا المصطلح يكون علم " الأركيولوجي" هو ذلك العلم الذي يختص بدراسة كل ما هو قديم أو ما يتعلق بالأزمنة والعصور القديمة ، وبعبارة أخرى هو العلم الذي يدرس المخلفات الباقية من العصور السابقة من آثار معمارية وتحف تطبيقية وغيرها ، ويُعنى علم الآثار كذلك بدراسة المكتشفات الأثرية التي تخرجها الحفائر وإلقاء الضوء عليها ، أما عن موضوعات علم الآثار فهي كل الحضارات والآثار وما يتعلق بها.

ومن الجدير بالذكر أن مصطلح " الأركيولوجي " ظهر للمرة الأولى عندما استخدمه المؤرخ "Dionysos" في كتابه الذي وصف فيه تاريخ روما وأطلق عليه "Romaika Archeologia " وقد استخدم الرومان أيضا هذه الكلمة "Archeologia " عند دراستهم لشعراء ومدن اليونان القديمة [1] . ويرتبط بهذا العلم أيضا لفظ أو كلمة الأركيولوجست "Archaeologist " وهي تعني الآثاري وهو الشخص الذي ينتمي إلى هذا العلم ويقوم بدراسة البقايا الأثرية والفنية أو يقوم بعمل حفائر في المواقع

---

(١) - Hasan Tahsin Uçankuş : Bir Insan ve Uygarlık Bilimi Arkeoloji , Ankara 2000 , pp .3-5 .

الأثرية والتلال الخربة ، ويعتبر علم الآثار من العلوم الحديثة نسبيا، فحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي كان الاهتمام بالآثار والتحف القديمة مقصورا على بعض الأغنياء والمغامرون وبعض المهتمين بالآثار القديمة من الهواة أو محبي الفنون أو الباحثين عن الكنوز الدفينة ، وكان هذا الأمر لا يخرج عن الهواية والاهتمام من قبل هؤلاء حيث كانوا يتسابقون في اقتناء التحف والأشياء القديمة الثمينة ، ويحرصون على عرضها أمام معارفهم وأصدقائهم ، وبهذا الشكل تعرضت كثير من الآثار والتحف إلي التهريب خارج أوطانها ، وتعرض بعضها للتلف والاندثار.

ومع مرور الوقت أخذ علم الآثار في الظهور وأصبح له علماؤه ومتخصصوه وتطور هذا العلم بشكل كبير في الوقت الحاضر لا سيما وأنه يستفيد من التطورات التي لحقت ببعض أفرع العلوم المختلفة التي تساعده في عمليات الاكتشافات والبحث أو التخصصات الأخرى مثل الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والهندسة والانثربولوجيا والتاريخ والجغرافيا والاجتماع والإحصاء واللغات والبيئة.

ونتيجة لذلك أصبحنا في العصر الحاضر لدينا فكرة جيدة ومعرفة عن الحضارات السابقة والمجتمعات الإنسانية القديمة وثقافاتها وكل ما يتعلق بهذه الحضارات وآثارها ومشاكل تلك المجتمعات، ويقوم بدراسة كل ذلك مئات بل آلاف الآثاريين والمتخصصين حول العالم ويقومون بكتابة الكتب والمقالات والمؤلفات التي تسهم في إلقاء الضوء على هذه الحضارات والثقافات السابقة . أما عن أهداف علم الآثار فهو يلبي بعض الاحتياجات عند الإنسان ، فالإنسان دائما ما يسأل عن الماضي وأحداثه

وحضاراته وثقافاته، ودائما يفتش ويبحث عن أجوبة وغير ذلك، وفي ظل علم الآثار يجد الإنسان إجابات عن الأسئلة المحيرة له[٢].

أيضا يخدم علم الآثار علم التاريخ بشكل كبير حيث أن المكتشفات والدراسات الأثرية التي يقوم بها الآثاريون تصب في نهاية المطاف في خدمة علم التاريخ .

علم الآثار الإسلامية

نعني بالآثار الإسلامية كل ما وصل إلينا من آثار مادية وتحف تطبيقية من العصور الإسلامية المختلفة السابقة ، وهي متنوعة الأشكال فهناك العمائر والمنشآت بأنواعها وطرزها المختلفة ، وهناك التحف التطبيقية مثل منتجات الخزف والزجاج والأخشاب والسجاد والنسيج وغير ذلك . ونظرا لأن هذه الآثار والتحف تعود إلى عصور إسلامية متنوعة يطلق عليها بوجه عام مصطلح الآثار الإسلامية ، أي أنها تنسب إلى العصر الإسلامي لأنها نتاج هذا العصر بعهوده أو فتراته المتنوعة ، ولكن هناك ملحوظة جديرة بالإشارة وهي أن هذه الآثار الإسلامية ليست كلها بطبيعة الحال آثار أو عمائر دينية ، ولكن هناك عمائر وآثار مدنية كالقصور والمنازل ، وأخرى عسكرية كالقلاع والأسوار والأبراج ، وآثار أو منشآت تجارية كالأسواق والفنادق والوكالات ، ومنشآت خيرية كالأسبلة.

أيضا هناك التحف التطبيقية التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالإنسان المسلم مثل تلك المستخدمة في حياته اليومية العادية مثل أدوات المائدة أو المطبخ المصنوعة من الخزف والمعدن والزجاج ، والتحف الخشبية

---

(٢) - Hasan Uçankuş,OP.Cit , P.4

والسجاد والمنسوجات ، والتحف المعدنية ، وهي أدوات مرتبطة بالاستخدام اليومي المدني ، وبمعنى آخر ليست الآثار الإسلامية كلها آثار دينية إسلامية ، ولكن لفظ إسلامية أو إسلامي يقصد به تلك الآثار والتحف التي تخلفت من عصور إسلامية متنوعة ومن عمل الفنان المسلم .

وفي الحقيقة فإن الآثار الإسلامية تتميز بمكانة مهمة ومرموقة بين أنواع وطرز الآثار الأخرى ، وذلك لأن هذه الآثار تنتشر على مساحة شاسعة من المعمورة ، وبعبارة أخرى فكل البلاد التي فتحها المسلمون أو وصلت إليها الحضارة والدين الإسلامي زينت بمختلف أنواع العمائر الإسلامية الدينية والمدنية ، وكما هو معروف فإن العالم الإسلامي يشغل موقعا هاما على خارطة العالم حيث إنه يمتد من بلاد التركستان وحدود الصين شرقا حتى بلاد المغرب المطلة على المحيط الأطلسي غربا ، ومن آسيا الصغرى ووسط أوربا شمالا حتى وسط أفريقيا جنوبا.

أيضا تُغطي الآثار والحضارة الإسلامية فترة زمنية طويلة منذ بداية ظهور الإسلام وتكوين الدولة الإسلامية في منتصف القرن السادس الميلادي وحتى العصر الحديث حيث مثّلت الدولة العثمانية وحضارتها آخر حلقات الآثار والحضارة الإسلامية وكانت منتشرة بدورها عبر قارات العالم القديم آسيا وأوربا وأفريقيا . وبعبارة أخرى أن الحضارة الإسلامية حضارة ممتدة منذ ظهورها وحتى الآن وليست حضارة قديمة أو مندثرة كالفرعونية والرومانية والبيزنطية وغيرها ، ولا تزال الشعوب الإسلامية في العصر الحديث تساهم بدورها في مسيرة تلك الحضارة العظيمة (الإسلامية) على الرغم مما أصابها من بعض مظاهر الضعف، وكما اهتمت الشعوب القديمة بآثارها وفنونها اهتم المسلمون أيضا بالآثار والكتابة عنها خاصة تلك الآثار التي كانت مرتبطة بالأماكن المقدسة عند

المسلمين مثل مكة المكرمة وما بها من آثار ؛ وكذلك المدينة المنورة التي شيَّد بها الرسول الكريم ﷺ مسجده الأول في الإسلام ، ومن أمثلة كُتَّاب المسلمين الأوائل في هذا المجال الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله) الذي كتب كتاب "أخبار مكة وما جاء فيها من آثار" ، والسمهودي (أبو الحسن بن عبد الله) الذي كتب كتاب " وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى" وغيرهم . أيضا اهتم بعض الرحالة المسلمين في العصور الوسطى بوصف الآثار والعمائر الإسلامية التي شاهدوها خلال رحلاتهم في البلدان والأقاليم الإسلامية ، ومن أشهر هؤلاء ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد اللواتي الطنجي) [٣] ، وكتابه الشهير المعروف " برحلة ابن بطوطة "

ونذكر أيضا في هذا المجال الرحالة التركي المسلم الشهير أوليا جلبي[٤] وكتابه "سياحتنامه"، كذلك اهتم بعض المؤرخين المسلمين بالكتابة

---

(٣) ابن بطوطة (شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم الطنجي) عاش بين سنوات ١٣٠٤ -١٣٦٩ م ، ولد في مدينة طنجة المغربية سنة ٧٠٣هـ /١٣٠٤م، ويُعدّ من أشهر الرحالة العرب ، بدأ جولاته عندما كان عمره ٢٢ عاما ، وذلك حينما خرج من بلاده بغرض الحج سنة ٧٢٥هـ /١٣٢٥م ، زار غالبية البلاد والأقاليم الإسلامية مثل مصر وسوريا والعراق وبلاد فارس وبلاد الحجاز ومكة والمدينة وزار معظم مدن الأناضول ، ومنها عبر إلى القرم وجنوب روسيا وخان الأوزبك ، واستمر في رحلته ووصل إلى بلاد السند والهند ومنها إلى بلاد البنغال وتجول في جزيرة سومطرة ، وزار الصين ، وبعد رحلته الطويلة وأثناء عودته مر على مكة ، ومصر والإسكندرية ، وأخيرا أنهى رحلاته في أواخر سنة ١٣٥٣م ، وعاد إلى المغرب وكان يبلغ من العمر عند وفاته ٤٩ عاما ، واستمرت جولاته حوالي ٢٩ عاما وتوفي سنة ٧٧٠هـ /١٣٦٩م . انظر :

- Ibrahim Kafesoğlu: "Ibn Battuta" Islam Ansiklopedisi ,C .5 / 2, Istanbul . 1988, pp . 708 - 711

(٤) أوليا جلبي Evliya Çelebi ، واسمه كاملا أوليا جلبي محمد ظِلّي ، أشهر رحالة تركي ، عاش في القرن ١١هـ /١٧م (١٦١١- ١٦٨٢م) ، تجول في كل ولايات وأقاليم الدولة العثمانية ومنها البلاد العربية ، وقد تحدث عن عادات وتقاليد شعوب هذه البلاد ، ووصف ما بها من آثار معمارية متنوعة كالجوامع والمدارس والخانات والتكايا والأسواق والحمامات=

عن الآثار والعمائر الإسلامية ، ويأتي على رأس هؤلاء المؤرخ الشهير المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) الذي ألف كتابا رائعا خصصه لآثار وخطط مصر والقاهرة وسماه " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " وكذلك ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) وكتابه الشهير "مقدمة ابن خلدون " حيث تحدث عن العمارة في فصل كامل ، ونصل إلى العالم الجليل علي باشا مبارك الذي ألف كتابه الموسوعي عن الخطط والآثار وسماه " الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ".

أيضا اهتم بعض الكتاب والمستشرقين الأوربيين بدراسة الآثار والفنون الإسلامية وذلك منذ منتصف القرن ١٩م ، وقد تطورت هذه الدراسات وغطت كافة نواحي وأفرع الفنون الإسلامية ، ونشير هنا إلى العالم الإنجليزي الشهير كريزول Creswell الذي ألف العديد من المؤلفات عن العمارة الإسلامية ، بالإضافة إلى عمل ببليوغرافيا (كتاب ضخم مرجعي) جمع فيه نحو ١٢٣٠٠ مؤلفا عن الفنون والآثار الإسلامية .

=والأسبلة والأضرحة والقلاع والأسوار والمنازل وغير ذلك ، وألف كتابا ضخما ضمنه كل مشاهداته وتعليقاته وهو المعروف بـ"أوليا جلبي سياحتنامه سي" أي رحلات وأسفار أوليا جلبي ، ويقع هذا الكتاب في عشرة أجزاء ، خصص الجزء العاشر منها لمشاهداته في ولاية مصر التي زارها وعاش بها لعدة سنوات قبل عودته الأخيرة إلي إستانبول حيث توفي ودفن بها سنة ١٦٨٢م ، ولم يتزوج أوليا جلبي طوال حياته ، وهو يعتبر أشهر رحالة مسلم بعد ابن بطوطة . ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب الضخم (سياحتنامه) قد ترجم لمعظم اللغات الأوربية ، وطبع مرتين باللغة التركية الحديثة ، وأخيرا ظهرت ترجمة عربية للجزء العاشر من كتاب أوليا جلبي وقامت بإصدارها دار الكتب المصرية سنة ٢٠٠٣ م .انظر : Evliye Çelebi Seyahatnamesi , C . I. 2 (Üçdal Neşriyat) Istanbul 1974 , pp .7-8 .

نشأة الفن الإسلامي

من خلال ما سبق نستطيع أن نعرف الفن الإسلامي بأنه ذلك الفن الذي ارتبط في نشأته بالإسلام الذي ظهر في جزيرة العرب ، وانتشر منها خلال فترة قصيرة نتيجة حركة الفتوحات الإسلامية إلى بلدان وأقاليم مجاورة مثل بلاد الشام والعراق وإيران ومصر وشمال أفريقيا، وهذا الفن قام في الأساس على أكتاف العرب المسلمين وأيضا شعوب البلاد العريقة التي تم فتحها سواء من دخل منهم في الدين الجديد أم استمر على دينه القديم وأصبح من أهل الذمة ، كل هؤلاء ساهموا في نشأة الفن الإسلامي وتطوره . وعلى الرغم من تعدد الأجناس والشعوب التي ساهمت بدورها في نشأة هذا الفن بما كانت تمتلكه من خبرات حضارية سابقة نجد أن وحدة العقيدة الإسلامية ومبادئها قد جمعت بينها ، وبمعنى آخر كانت العقيدة الإسلامية بالإضافة إلى العروبة من أهم الأسس التي قام عليها الفن الإسلامي العظيم ، فهناك وحدة في الفن الإسلامي كانت مبادئ وقواعد الإسلام وراءها ، وكما نعلم فقد كان هناك شعوب غير عربية أسهمت بشكل كبير في الحضارة والفن الإسلامي مثل الإيرانيين والأتراك ، وهناك طرز فنية ومعمارية ظهرت في بلاد إيران والعراق وما وراء النهر أو التركستان (بلاد الترك) والهند وفي مصر وبلاد شمال أفريقيا والأندلس ، فكل هذه الشعوب قد أنتجت فنا إسلاميا ، وعلى الرغم من وجود بعض الخصائص والسمات لكل طراز أو أسلوب فني إسلامي إلا أن هناك بعض العناصر الموحدة أو المشتركة التي تشير إلى علاقة هذه الطرز والأساليب الفنية ببعضها البعض ، وهذا يعود كما ذكرنا من قبل إلى وحدة العقيدة الإسلامية التي جمعت بين كل هذه الشعوب، أما الخصائص المميزة لكل طراز فني فترجع إلى البيئة والميراث الحضاري

والفني لهذه الشعوب ، وكذلك المواد الخام المتوفرة في تلك البلاد(٥). وبعبارة أخرى فإن الفن الإسلامي يعتبر فنا دنيويا أي مرتبط بالحياة اليومية وليس فنا مرتبطا بالآخرة أو بالحياة الثانية بعد الموت كما هو الحال في بعض الفنون القديمة كالفن المصري القديم مثلا ، إلا أننا لا نستطيع أن نغفل أثر الدين الإسلامي في تكوين الفن الإسلامي وتطوره ، ومراعاة الفنان المسلم لمبادئ الإسلام في فنه هو الذي جعله فنا متميزا عن غيره من الفنون الأخرى المعاصرة . ولكن ارتباط هذا الفن بصفة الإسلامي مرتبط بالأقوام والشعوب الإسلامية التي أنتجت هذا الفن أو أنه فن هذه الشعوب الإسلامية. وهناك نقطة تجدر الإشارة إليها ونحن بصدد الحديث عن الفن الإسلامي ونشأته وهي أن بعض دارسي ومؤرخو الفنون والآثار الإسلامية في الغرب تبنوا فكرة أو رأي مؤداه إنكار أي فضل للعرب والإسلام في تكوين الفن الإسلامي زاعمين أن العرب لم يكن لديهم المهارة والخبرات الفنية والحضارية التي تمكنهم من الإسهام في نشأة وتطوير فنون العمارة والزخرفة الإسلامية ولذلك أرجعوا نشأة الفن الإسلامي إلى تأثيرات وأساليب فنية غير عربية جاءت عن طريق الشعوب الأخرى التي اعتنقت الإسلام ، وبعبارة أخرى أن هذا الفن قام على أكتاف شعوب غير عربية كان لديها خبرات حضارية سابقة وأن العرب لم يكن لديهم فنون حقيقية قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، وأنهم استفادوا من الفنون الأخرى السابقة وأشاروا تحديدا إلى الفن الساساني (الإيراني) والبيزنطي، وأن الفن الإسلامي اعتمد بشكل كبير في نشأته على هذين الفنين، وفي الحقيقة فإن هذا الرأي بعيد كل البعد عن جادة الصواب وعلى الرغم من أننا لا ننكر إسهامات الشعوب غير العربية ولا التأثيرات الفنية الأخرى في نشأة الفن الإسلامي لا سيما الفنين

---

(٥) - Suut Kemal Yetkin :Islam Ülkelerinde Sanat, Istanbul 1984 , p.10

الساساني والبيزنطي إلا أننا نرفض القول بانعدام الدور العربي ولمبادئ الإسلام (أساس العقيدة الذي أشرنا إليه من قبل) في نشأة الفن الإسلامي فالبداية الحقيقية لهذا الفن كانت كما هو معروف في بلاد الشام أولا وهي أرض عربية عريقة ، ثم تطور هذا الفن في بلاد العراق في العصر العباسي وهي أيضا بلاد عريقة بها فنون أصيلة ، وقد ساهمت هذه البلاد تحديدا في الطرز الفنية التي ظهرت بها ، وبمعنى آخر فالفن الساساني في العراق أخذ الكثير عن الفنون العراقية القديمة ، وكذلك الفن البيزنطي في سوريا ، وعندما ظهر الإسلام واعتنقه أهل هذه البلاد كان من الطبيعي أن يسهموا بتقاليدهم وميراثهم الحضاري الكبير في هذا الفن الوليد ولكن وفق تعاليم الإسلام ومبادئه، وبعبارة أخرى لم يكن الفن الإسلامي هو الفن الوحيد الذي أخذ عن الفنون السابقة ، ولكن هذا شئ طبيعي حدث مع الفنون السابقة على الفن الإسلامي وحدث أيضا مع الفنون الأخرى المعاصرة له وهكذا فالفنون والحضارات تأخذ من بعضها أو بمعنى آخر تتفاعل مع بعضها ، ولا يعيب الفن الإسلامي تأثره بالفنون السابقة سواء الساساني أو البيزنطي لأن الفن الإسلامي سرعان ما استقل بشخصيته وأصبح له أسلوبه المميز عن بقية الفنون الأخرى.

أيضا كان للعرب قديما إسهامهم الحضاري من خلال الدول والممالك التي أقاموها قبل الإسلام ، ونشير هنا إلى حضارة وفنون دولة الأنباط ، وكذلك دولة تدمر والمناذرة والغساسنة ، وهذه دول عربية أصيلة كان لها دور كبير في التاريخ العربي القديم ، ولا تزال بقايا بعض آثارها من قصور ومعابد وأضرحة شاهدا على حضارتها وفنونها الراقية، وبمعنى آخر عرف العرب القدماء الفن والحضارة وساهموا فيها[٦].

---

(٦) لمزيد من التفاصيل عن هذه الدول وحضارتها وفنونها انظر : =

وتجدر الإشارة إلى أن مملكة المناذرة (الحيرة) في بادية العراق وكذلك مملكة الغساسنة في سوريا ظلتا قائمتين حتى ظهور الإسلام والفتح الإسلامي لبلاد الشام والعراق ، وقد زالت هذه الممالك التي عمرت طويلا مع زحف الجيوش الإسلامية وفتحها لبلاد الشام والعراق وإيران . وكان لهذه الممالك أو الدول فنون معمارية راقية حيث كان أمراء الحيرة مولعين بإنشاء القصور والعمائر الفاخرة ودعوة الشعراء العرب لإلقاء أشعارهم في بلاطهم والإغداق عليهم ، وقد وصل إلينا أسماء بعض هذه القصور والعمائر مثل قصر الخورنق وقصر السدير ، والعديد من الأديرة والكنائس حيث كانت المسيحية منتشرة بين عرب الحيرة، وكذلك تخلف من دولة الغساسنة بعض الآثار لعل من أشهرها قصر المشتى وقصر الطوبة ، ويُرجّح إنشاؤهما خلال القرن الخامس الميلادي ، بالإضافة إلى أطلال وبقايا أثرية لبعض الهياكل والمعابد والطرق ، ومن خلال دراسة هذه العمائر والآثار يظهر لنا تأثر فنون هاتين الدولتين العربيتين (المناذرة والغساسنة) بالفنون المعاصرة لهما وهي الساسانية والبيزنطية .

وخلاصة القول أن تاريخ العرب القديم يشهد بإسهامهم الحضاري، ولكن مع مرور الزمن وظهور إمبراطوريات واختفاء دول وممالك كثيرة نجد أن العرب في الجزيرة العربية دخلوا في طور الضعف والتخلف بعد سقوط معظم دولهم القديمة ، وضعفت تلك التي استمرت حتى القرن السادس الميلادي ، أي قبيل ظهور الإسلام ، ومظاهر الضعف والتخلف لم تكن مقصورة على النواحي الحضارية والفنية بل حتى الجانب الفكري على الرغم من احتفاظهم ببراعتهم في

= توفيق برّو : تاريخ العرب القديم ، ط ٢ دمشق ١٩٩٦ ؛ محمود عرفه محمود : العرب قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٩٨ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط ٢ ، القاهرة ٢٠٠٠ م .

اللغة العربية والشعر والأدب العربي الذي حافظ علـــى مســـتواه خـــلال العصر الجاهلي ، وكان لديهم أيضا دراية وخبرة بالفن التشكيلي وتمثـــل ذلك في صناعة ونحت التماثيل التي ترمز إلـــى آلهـــتهم المتعـــددة قبـــل الإسلام، ويُذكر أن الكعبة كانت تحتوي على ثلاثمائة صنم وتمثال بداخلها وخارجها تم إخراجها وتحطيمها بعد فتح مكة ، وبمعنى آخر كان للعرب علـــى الرغم مـــن ضعفهم وتخلفهم قبل الإسلام دراية ببعض الفنون، ولا يستطيع أي مؤرخ فني منصف أو آثاري أن ينفي عن العرب تمامـــا أي معرفة لهم بالفن والحضارة وكأنهم أمة منعزلة عن العالم المحيط بها قبل الإسلام ، لكن العرب شأنهم في ذلك شأن بقية الأمـــم والشـــعوب تمـــر بمراحل ضعف وخمول ثم نهضة وتقدم وهذا ما حدث لهم مـــع ظهـــور الإسلام واعتناق العرب لمبادئ وأفكار هذا الدين ، وحدث أن شهد العالم في أقل من قرن من ظهور الإسلام نشأة حضارة جديدة إسلامية امتـــدت لتشمل أهم الأقاليم والبلدان التي كانت تابعة لأكبر إمبراطوريتين آنـــذاك وهما الفارسية والبيزنطية ، وبطبيعة الحال فقد حمل العرب المبادئ والقيم الإسلامية إلى الشعوب والبلاد التي فتحوها ، ودخلت شعوب أخرى غير عربية في الإسلام وتعاونوا مع العرب لنشر مبادئ الدين الإسلامي واللغة العربية (لغة القرآن) وأصبح للعربية ولتعاليم القرآن السيادة المطلقة فـــي العالم الإسلامي وكان ذلك من أهم العوامل التي أدت إلى ظهور الكثيـــر من الفنون الإسلامية وازدهارها خلال فترة وجيزة[٧] . ومن الطبيعـــي أن تؤثر تعاليم ومبادئ الإسلام في الفن الإسلامي فنجد مثلا أن مبدأ الإتقـــان في العمل وهو مبدأ أو قاعدة إسلامية كان له أثره الكبير عند الفنان المسلم ودفعه إلى التجويد والإتقان والإبداع في فنه، وأدى هذا في النهايـــة إلـــى الاهتمام بالمنتج الفني والعناية بزخرفته . أيضا نجد أن الفـــن الإســـلامي

(٧) أرنست كونل : الفن الإسلامي ، ترجمة أحمد موسى ، بيروت ١٩٦٦ ، ص١

ارتبط ارتباطا وثيقا بالحياة والاستمتاع بها في إطـــار القـــيم والمبـــادئ الإسلامية ، ولذلك نجد أن الفنان المسلم يبدع وفق منظومة مبادئ وقـــيم معينة فنجده يهتم ويبالغ في الزخرفة ولكنه يبتعد عن محاكاة الطبيعة وعن محاكاة الواقع حتى لا يقع في إشكالية مضاهاة خلق الله سواء في صـــور الكائنات الحية أو حتى الأشكال والمناظر النباتية فكان يلجأ إلى التحوير ، أيضا لم يلجأ الفنان المسلم إلى استخدام التماثيل أو التصاوير الآدمية فـــي زخرفة عمائره وتحفه التطبيقية ، وأدى ذلك إلى تفوق الفنان المسلم فـــي مجال الزخارف الهندسية وكذلك الكتابية ، وظهر فن الخط العربي مرتبطا بالفن الإسلامي وأصبح هناك مدارس لهذا الفن .

كذلك نجد أن تعاليم الإسلام كان لها أثر مهم في كراهية الفنـــان المسلم وتحريمه للتصوير ولذلك لم يلجأ مثل بعض الفنون الأخرى (كالفن المسيحي المعاصر) إلى تجسيم معتقداته الدينية سواء بالتصوير أو بعمل تماثيل داخل المساجد والجوامع وغيرها من المنشآت الدينية ، ونجد الفنان المسلم يستبدل التصاوير والتماثيل بالكتابات العربية وأصبح الخط العربي القاسم المشترك في عمليات الزخرفة والتـــزيين لكـــل أنـــواع العمـــائر الإسلامية وكذلك التحف التطبيقية .

بالإضافة إلى الأسس والمبادئ التي قام عليها الفـــن الإســـلامي وأثرت فيه كان هناك مصدرين آخرين أثرا بشكل كبير على هـــذا الفـــن وهما الفن الساساني والفن البيزنطي وسبقت الإشارة إليهما مـــن قبـــل ، ولكن نشير هنا مرة أخرى إلى أن الاقتباس أو الأخذ عن الفنون ليســـت ظاهرة جديدة اختص بها العرب والمسلمون ، فقد أخذت الفنون القديمة من بعضها ونحن نعلم أن الفن المصري القديم مثلا كان له تأثيره الكبير على الفنون القديمة المعاصرة له وتلك التي جاءت بعده ، أيضا ظاهرة الأخـــذ

عن الفنون والحضارات الأخرى لا تنفي صفة الإبداع والابتكار عن المقتبس ، وفي حالة الفن الإسلامي نجد أن الفنان المسلم يأخذ فقط العناصر التي تتلاءم مع رؤيته ومبادئه ، وكان يلجأ إلى التحوير والبُعد عن محاكاة الطبيعة حتى في حالة الرسوم النباتية وقد أشرنا إلى ذلك مرارا من قبل .

أما الفن الساساني فهو يُعّد من الفنون الإيرانية العريقة وهو ينسب إلى الدولة الساسانية التي قامت في إيران سنة ٢٢٦م على يد أردشير الأول ابن بابك ، وتنسب الدولة إلى ساسان (Sasan) الجد الأول الذي كان يقيم في اقليم فارس ، وسقطت هذه الدولة مع هزيمة الجيوش الساسانية أمام الجيوش الإسلامية الفاتحة ومقتل آخر ملوكها يزدجرد سنة ٦٥٢م ، وكانت الدولة الساسانية من أقوى وأهم الدول التي قامت في إيران ، وكانت عاصمتها طيسفون (المدائن) [٨] . وكان للفن الساساني تأثيره الكبير في الفن الإسلامي بصفة عامه وكذلك الفنون الإيرانية الإسلامية بصفة خاصة، ومن المعروف أن فنون الخزف والمعادن والنسيج كانت قد حققت تقدما ورقيا كبيرا خلال العصر الساساني وقد أثرت بأشكالها وزخارفها في الفن الإسلامي ، وهذا أمر طبيعي حيث كانت هناك علاقات بين الفرس والعرب منذ القدم ، وقد تأثرت فنون مملكة الحيرة (المناذرة) بالفن الساساني قبل ظهور الفن الإسلامي ، وبمعنى آخر كان هناك علاقات فنية بين العرب والفرس قبل الإسلام وقد استمر دلك بعد الإسلام لا سيما بعد اعتناق الإيرانيون للإسلام ومساهمتهم في حمل لواء الحضارة

---

(٨) لمزيد من المعلومات عن الدولة الساسانية انظر :

أرثر كرسيتنسن: إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب، الألف كتاب الثاني، القاهرة ١٩٩٨م ؛ مفيد رائف محمود : معالم تاريخ الدولة الساسانية (عصر الأكاسرة ٢٢٦-٦٥١م) ، دمشق ١٩٩٩م .

الإسلامية مع أشقاؤهم العرب ، خاصة وأنهم من الشعوب العريقة التي لديها تراكم فني وحضاري كبير . وقد أثر الفن الساساني ببعض عناصره الزخرفية في الفن الإسلامي مثل بعض الأشكال الهندسية كالدوائر والمثلثات ، وبعض الزخارف النباتية مثل زهرة اللوتس والأوراق الرمحية وبعض الأشكال الحيوانية كالأسد والنسر والغزال وبعض الأشكال الحيوانية الخرافية ، وبعض الطيور الجارحة والطاووس، أيضا هناك بعض العناصر النباتية وأهمها المراوح النخيلية .

أما الفن الثاني الذي كان له تأثيره الواضح في الفن الإسلامي هو الفن البيزنطي ، وهو ينسب إلى الإمبراطورية أو الدولة البيزنطية ، تلك الدولة الكبرى التي حكمت أجزاء كثيرة من العالم في العصور الوسطى، واستمرت لمدة طويلة بلغت نحو عشرة قرون وذلك منذ تأسيس مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة سنة ٣٢٤م وحتى سقوطها سنة ١٤٥٣م على يد السلطان العثماني محمد الثاني (الفاتح) ، وتُعرف الإمبراطورية البيزنطية كذلك باسم الدولة الرومانية الشرقية تميزا لها عن الإمبراطورية الرومانية القديمة التي سقطت في أواخر القرن الخامس الميلادي ، وأيضا تميزا لها عن الإمبراطورية الرومانية الغربية التي تم إحياؤها في بداية القرن ٩م في عصر شارلمان ، أيضا تُعرف هذه الدولة في المصادر العربية باسم دولة الروم أو بلاد الروم وذلك نسبة إلى سكانها الأوائل الذين كانوا من الرومان، وإلى البحر المتوسط الذي كان يعرف حينذاك باسم "بحر الروم". أما عن تسميتها بالدولة البيزنطية فيرجع إلى الموقع الذي شُيّدت به عاصمتها وكان يسمى بيزنطة "Byzantiuon" ، فعرفت العاصمة بـ "بيزنطة"، وأخيرا سميت بالقسطنطينية نسبة إلى مؤسسها الإمبراطور قسطنطين الكبير الذي انتهى من تشييدها وافتتحها رسميا عام

٣٣٠ م [٩]. والدولة البيزنطية من أهم وأقوى الإمبراطوريات التي حكمت أجزاء كثيرة من العالم وتقاسمت مقدراته لفترة طويلة مع الإمبراطورية الفارسية، وكان للدولة البيزنطية فنونها المعمارية والزخرفية الراقية التي لا تزال بعض روائعها قائمة حتى الآن تشهد على رقي وتطور الفن البيزنطي ، ومن أشهر عمائر تلك الدولة كنيسة آيا صوفيا في القسطنطينية التي شيَّدها الإمبراطور جستنيان الثاني سنة ٥٣٨م ، وهي تعد رائعة فن العمارة البيزنطية من حيث التخطيط والزخارف ، وقد تم تحويل هذه الكنيسة إلى جامع بعد فتح القسطنطينية (إستانبول حاليا) في ٢٩ مايو عام ١٤٥٣م ، وتم تحويلها إلى متحف آيا صوفيا في الثلاثينات من القرن العشرين في عهد الجمهورية التركية . وكان لهذه الكنيسة وتخطيطها وزخارفها أثر كبير على فنون العمارة في العصور الوسطى سواء الأوربية أو الإسلامية. ومن الجدير بالذكر أن الفن البيزنطي كان له تأثيره الواضح في بعض الفنون العربية السابقة على الإسلام حيث كان فن العمارة في دولة الغساسنة العربية متأثرا بشكل كبير بفنون بيزنطة، وهذا أمر طبيعي حيث إن دولة الغساسنة التي قامت في حوران من أرض الشام تاخمت لحدود الإمبراطورية البيزنطية وتحالفوا مع البيزنطيين وقاموا بدور الحارس الأمين لحدود وأملاك الدولة البيزنطية ، وقد زار بعض ملوك الغساسنة العرب القسطنطينية مقر الدولة البيزنطية وتأثروا بما شاهدوه من روائع فن العمارة هناك من قصور وكنائس ، ولذلك كان فن دولة الغساسنة متأثرا بالأساليب البيزنطية ، وكان من الطبيعي أن

---

(٩) لمزيد من التفاصيل عن الدولة البيزنطية انظر المراجع الآتية :

جو زيف نسيم يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٨ م ؛ محمود سعيد عمران : معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٠م .

يتأثر الفن الإسلامي الوليد بالفن البيزنطي خاصة أن العاصمة العربية التي تُشكّل ونشأ بها الفن الإسلامي كانت دمشق وذلك في عصر الدولة الأموية ، وكانت دمشق قبل الفتح الإسلامي تزدان بروائع العمائر البيزنطية المسيحية ، أيضا ساهم أهل البلاد التي فتحها المسلمون ومنها بلاد الشام بجهدهم في عمليات الإنشاء والتعمير التي نشطت بعد نقل العاصمة من المدينة المنورة إلى دمشق ، وقد تأثرت العمائر الأموية بدمشق وغيرها من مدن وأقاليم بلاد الشام بالفن البيزنطي حيث كان يتمتع أهل تلك البلاد من السوريين بخبرات وميراث حضاري كبير مكّنهم من المساهمة في خدمة الفن الإسلامي الوليد على أرضهم ولكن كما ذكرنا من قبل كان ذلك الإسهام وفق مبادئ ورؤية الدين الإسلامي الذي اعتنقوه .

وتظهر التأثيرات الفنية البيزنطية بشكل واضح في عمائر وفنون الدولة الأموية ، ونرى ذلك في فن الفسيفساء [١٠] البيزنطية الذي استخدم في زخرفة جدران وأسقف الكنائس والقصور البيزنطية وقد استخدم الفنان

---

(١٠) الفسيفساء Mosic أو Mosaique فن أو أسلوب زخرفي قديم ، والفسيفساء عبارة عن قطع صغيرة على شكل مكعبات صغيرة ملونة من الزجاج أو الخزف أو الحجر وكانت توضع متجاورة لتكّون أو تشكل موضوع زخرفي معين هندسي أو نباتي أو أشكال آدمية ، وذلك فوق أسطح الجدران أو الأرضيات وأحيانا الأسقف ، ونوضع هذه القطع الدقيقة فوق طبقة من السطح المراد زخرفته بواسطة مادة لاصقة مثل الجص ، أو توضع فوق طبقة من الملاط قبل أن تجف ، وفي النهاية تشكل ما يشبه اللوحة الفنية ، ولكنها منفذة بواسطة هذه القطع الدقيقة ذات الألوان المتعددة ، وأسلوب الزخرفة بالفسيفساء معروف منذ القدم حيث استخدم في زخارف بعض الأرضيات والجدران وقد وصل هذا الفن إلى مراحله "متقدمة في العمارة الرومانية والبيزنطية ، ويرى بعض العلماء أن فن الفسيفساء ظهر في الشرق وانتقل منه إلى بقية الحضارات ، فقد استخدمه الكلدانيون (حوالي ٢٥٠ قبل الميلاد)، كما استخدم قدماء المصريين أسلوب قريب من الفسيفساء في بعض قصورهم ومعابدهم . انظر :

- Celal Esad Arseven : Sanat Ansiklopedisi, C.III, 2 . baski , Istanbul 1966 , P. 1465

البيزنطي الفسيفساء في تنفيذ معظم الموضوعات الزخرفية التي كانت شائعة في تلك الفترة في الفن البيزنطي المسيحي من صور ورسوم الأباطرة البيزنطيين في بلاطهم وحولهم الحاشية، أو عمل موضوعات دينية تمثل السيد المسيح (عليه السلام) وحوله الحواريون، أو السيد المسيح تحمله السيدة العذراء، وغير ذلك من الموضوعات المرتبطة بالديانة المسيحية ، أيضا استخدم هذا الأسلوب في عمل أشكال أو مناظر طبيعية من أشجار وأزهار وحدائق وغير ذلك ، وبعبارة أخرى استخدم أسلوب الفسيفساء في تنفيذ كل الموضوعات والتشكيلات الزخرفية التي كانت شائعة في الفن البيزنطي ، وسوف يظهر هذا الأسلوب في زخارف العمائر الإسلامية المبكرة، خاصة في عمائر الأمويين من قصور وجوامع وغيرها مثل قبة الصخرة بالقدس الشريف والجامع الأموي بدمشق ، ولكن الفنان المسلم استخدم هذا الأسلوب في تنفيذ موضوعات تتفق مع مبادئ عقيدته فلم يستخدم الصور الآدمية أو الحيوانية بل استخدم الزخارف النباتية والكتابية وأن كان قد تأثر ببعض العناصر النباتية التي كانت مستخدمه من قبل في الفن البيزنطي .

أيضا كان هناك طريقة أو أسلوب الزخرفة بالألوان المائية (الفرسكو) في الفن البيزنطي وقد عرف هذا الأسلوب أيضا في الفن الإسلامي ، أما العناصر الزخرفية البيزنطية وخاصة النباتية فقد كانت شائعة الاستخدام في الفن البيزنطي وكانت تنفذ بطريقة الفسيفساء أو الفرسكو، وتتميز العناصر النباتية البيزنطية بدقة تنفذها والواقعية وقربها من الطبيعة ومن هذه العناصر أوراق وعناقيد العنب ، وأوراق الأكانتس (شوكة اليهود)، وكيزان الصنوبر والزهريات التي تخرج منها الزهور وشجرة الحياة والخلاصة أن الفن البيزنطي كان فنا عريقا امتد على رقعة شاسعة من العالم وكان له مراكز كبرى متعددة مثل القسطنطينية

وإنطـــاكية والإسكندرية ، ولا تزال الكثير من العمائر البيزنطية قائمـة مثل الكنائس والأديرة والقلاع والأسوار وبقايا بعض القصور وهي تعطي لنا فكرة طيبة عن طبيعة هذا الفن البيزنطـي ومميزاتـه[١١] . وبعـد أن تحدثنا عن الفنيين الساساني والبيزنطي نشير في عجالة إلي إسهام العرب أصحاب الرسالة المحمدية في نشأة الفن الإسلامي وسـبق أن ذكرنـا أن بعض مؤرخي الفنون من الأوربيين دأبوا على نفي أي دور للعرب فـي نشأة الفن الإسلامي زاعمين أن العرب لم يكن لهم حضارات عريقة قبـل الإسلام ، وسبق أن تم تفنيد هذه المزاعم ولكن نضيف هنـا أن العـرب بالإضافة إلى إسهامهم المباشر في نشأة هذا الفن كانوا يتمتعـون بحـس حضاري شديد وكان ذلك يتفق مع مبادئ الإسلام في التسـامح والحفـاظ على الحياة ومظاهرها التي امتدت إلى تحريم قطع شجرة ، حتى يسـتفيد بها الإنسان ، ولوجود هذا الحس الحضاري والتسامح لم يـدمر العـرب الفاتحين مظاهر الحضارات في البلدان التي تم فتحها على أيـديهم بـل حافظوا عليها ومن ثم وصلت إلينا في العصر الحديث ، وهذا الأمر لـم يتوفر لغيرهم من الأقوام والشعوب التي قادت عمليـات الفتوحـات فـي العصور القديمة والوسطى، فحينمـا غـزا اللاتـين الأوربيـين مدينـة القسطنطينية في عام ١٢٠٤م أثناء الحملة الصليبية الرابعة قاموا بنهـب المدينة وتدمير آثارها وقصورها حتى أن كنيسة المدينة الرئيسـية (آيـا صوفيا) لم تسلم منهم على الرغم من انتمـاء أهـل القسـطنطينية إلـى المسيحية ولم يشفع لهم ذلك وربما كان اختلاف مذهبهم الأرثوذكسي عن

---

(١١) عن الفن البيزنطي انظر :

ثروت عكاشة : الفن البيزنطي ، موسوعة تاريخ الفن ، جـ١١ ، دار سعاد الصـباح للنشر ، القاهرة ١٩٩٣م؛ ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ط ٢ ، (سلسلة الألف كتاب الثاني) القاهرة ١٩٩٧م.

مذهب اللاتين الكاثوليك دافعا وراء كل هذه الأعمال العنيفة والتدمير ، وإذا انتقلنا إلى الفتح الإسلامي لنفس المدينة (القسطنطينية) عام ١٤٥٣م على يد محمد الثاني (الفاتح) نجد أن الوضع كان مختلفا تماما ، حيث أمر السلطان المسلم جنوده بعد فتح المدينة بالكف عن أعمال القتل واحترام أهل المدينة ومعتقداتهم، ولم يدمر كنائس المدينة بل صلى أول صلاة جمعة في كنيسة آيا صوفيا وأمر بتحويلها إلى جامع لحين الانتهاء من تشييد جوامع جديدة بالمدينة لاستيعاب الأتراك المسلمين ،.بل أكثر من هذا أمر بعد الفتح بترميم وإصلاح أسوار المدينة ومنشآتها التي كانت الحرب قد دمرتها ، وهذا الأمر كان راجعا إلى روح التسامح التي يتمتع بها القائد المسلم ، أيضا نشير إلى ما فعله المغول حينما غزوا الشرق ودمروا مدنه وتراثه الحضاري في بغداد ودمشق وغيرهما ، وهذه الأمور لم تحدث خلال الفتوحات الإسلامية التي قام بها العرب في بداية الإسلام ولم تحدث أيضا على يد الشعوب الإسلامية التي حملت لواء الفتوحات الإسلامية كالأتراك، وكل ذلك يعود كما ذكرنا إلى مبادئ الإسلام السمحة التي حملها العرب لبقية الشعوب ، وبالتالي كان للعرب فضل كبير في نشأة هذا الفن وتطوره بشكل مباشر وغير مباشر، ولأن الإسلام يحث المسلم على الإتقان في عمله والاستمتاع بالحياة وبزينتها نجد أثر ذلك في المنشآت الإسلامية المبكرة وفي زخارفها ، أيضا نرى الفنان المسلم يبعد عن محاكاة أو تقليد الطبيعة حتى يتحاشى مضاهاة خلق الله سواء في صور الكائنات الحية أو في الرسوم النباتية ، ولهذا لجأ الفنان المسلم حتى يشبع رغبته الفنية إلى مجالات زخرفية أخرى كالزخارف الهندسية التي تطورت بشكل كبير غير مسبوق في الفن الإسلامي ، وكذلك اتجه الفنان المسلم إلى الخط العربي الذي كان مرتبطا في نفس الوقت بالقرآن الكريم الذي تم جمعه في عهد الخليفة أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ، ثم تم

نسخ المصاحف في عهد عثمان بن عفان (رضي الله عنه) كل ذلك أدى إلى زيادة الاهتمام بالخط العربي بل تطورت فنون أخرى مرتبطة بالمصحف وهي فن التذهيب والتجليد، وسوف نتعرض لهذه الفنون فيما بعد ، ونتيجة لهذا الاهتمام الكبير بالمصحف وكتابته أصبح الخط العربي من أهم الفنون الإسلامية وكثرت مدارسه وأنواعه ، وقلما نجد أثرا معماريا أو تحفه فنية إسلامية بدون كتابات عربية ، أيضا ارتبط بمبادئ الإسلام حرص المسلمون على عدم زخرفة وتزيين جوامعهم ومدارسهم بصور آدمية أو موضوعات دينية كما كان الوضع في الفنون السابقة أو المعاصرة غير الإسلامية ومن ثم تم إهمال مثل هذه الموضوعات وحل محلها الزخارف الكتابية وكان أغلبها آيات قرآنية وأحاديث شريفة ، والزخارف الهندسية ، وكذا الزخارف النباتية ولكن بعد أن تم تحويرها فأصبحت بعيدة عن أصولها الطبيعية ، وبعبارة أخرى كان لمفاهيم ومبادئ الإسلام أثر كبير في نشأة الفن وسبق أن أشرنا إلى ذلك من قبل .

وقد تميّز الفن الإسلامي بحيوية كبيرة نتيجة امتزاج عناصر وأساليب وتأثيرات متنوعة بسبب كثرة الشعوب والأجناس المسلمة غير العربية التي كان لها أساليبها وطرزها الفنية الخاصة ، ولكن جمعت وحدة العقيدة ومبادئها بين هذه الشعوب وبين إخوانهم العرب ، ولم يأخذ الفن الإسلامي أي شكل من أشكال الجمود والثبات بل نجده خلال فترة قصيرة أصبح له خصائص فنية ميزته عن غيره من الفنون المعاصرة أو السابقة التي أخذ عنها ، وانتشر الفن الإسلامي على مساحة شاسعة نتيجة حركة الفتوحات الإسلامية ، وتعددت طرزه وفق البيئات والأقاليم الإسلامية المختلفة وميراثها الحضاري وخبراتها، ولكن ظل هناك عناصر وأساليب مشتركة بين الطرز الفنية المختلفة .

ونصل الآن إلى مناقشة وعرض المسميات التي أطلقت على الفن الإسلامي، ومن الجدير بالذكر أن دارسي ومؤرخي الفنون الإسلامية من المستشرقين لم يستقروا على اسم أو مسمى واحد لهذا الفن بل أطلقوا عليه عدة مسميات وهناك ثلاثة أسماء شائعة وهي فن المسلمين أو العرب (The Art of the Saracens) ولكن كما هو معروف أن كلمة Saracen كان لها مدلول سيئ عند الأوربيين لا سيما في العصور الوسطى حيث كان يقصد بها المسلمين أو العرب المتخلفين غير المتحضرين. وإذا استخدمت بمعنى العرب أو العربي تكون قاصرة لأن هناك شعوب أخرى غير عربية ساهمت وأبدعت في هذا الفن ، وثاني هذه الأسماء هو الفن المحمدي (Mohammadan Art) ولكن هذا الاسم لا يتفق مع طبيعة الفن الإسلامي لأنه ينسبه إلى الدين المحمدي نسبه إلى الرسول ﷺ ، وسبق أن ذكرنا أن الفن الإسلامي ليس فنا دينيا بل فنا يخاطب الحياة، أما التسمية الثالثة فهي الفن الشرقي (Eastern Art) ، ولكن كما هو معلوم أن الفن الإسلامي لم يقم على أكتاف مسلمي شرق العالم الإسلامي فقط بل ساهم فيه مسلمو الشرق والغرب الإسلامي معا، وإن استخدام لفظ أو مسمى الشرقي يتجاهل أهل الغرب الإسلامي (بلاد المغرب والأندلس) ، وهناك من يطلق على هذا الفن مصطلح الفن العربي (The Art of Arab) وهي تسمية قاصرة وسبق أن أشرنا أن هذا الفن ساهم فيه العرب وغيرهم من الشعوب الأخرى غير العربية التي دخلت في هذا الدين، وكان لها إسهامات عظيمة من الصعب بل من المستحيل إنكار فضلهم في نشأة وتطور مسيرة هذا الفن ، ومن هذه الشعوب الفرس والأتراك .

وأخيرا هناك المسمى الشائع وهو الفن الإسلامي (Islamic Art) وهو اسم نرى أنه أقرب إلى الصحة ولكن كما أوضحنا مرارا أن كلمة الإسلامي تنسحب فقط على الشعوب الإسلامية التي ساهمت في هذا الفن

أي أنه فن الشعوب المسلمة ، لأن الفن الإسلامي لم يستخدم لتوضيح العقيدة الإسلامية أو يصورها مثلما حدث مع بعض الفنون الأخرى كالفن البيزنطي المسيحي مثلا ، وبعبارة أخرى لا يفهم من هذه التسمية أنه فنا دينيا بل هو فن دنيوي قام به المسلمون ، ولكن وفق مبادئ إسلامية معينة والتسمية بهذا الشكل لا تنكر في نفس الوقت حق غير المسلمين الذين ساهموا في هذا الفن كمسيحي الشام أو أقباط مصر مثلا ، ولكن الدور الأكبر في هذا الفن كان للأغلبية المسلمة . وبعبارة موجزة من الممكن تعريف الفن الإسلامي بأنه فن الشعوب الإسلامية أو فن الدولة الإسلامية، والفن الإسلامي كلمة عامة تشمل كل أنواع الفنون التي أنتجها الفنان المسلم عبر الدول الإسلامية الكثيرة خلال العصور الإسلامية المختلفة ، وهو يشمل فن العمارة الإسلامية بطرزها المختلفة وكذلك الفنون التطبيقية من منتجات وتحف خزفية ومعدنية وزجاجية وخشبية ، وأيضا الزخارف الإسلامية وطرزها .

ويعتبر المسجد أول وأهم معالم الفن الإسلامي حيث أن تعمير المساجد من أفضل القربات إلى الله عز وجل ، وكما هو معروف فإن وظيفة المسجد الأساسية هي الصلاة التي هي عماد الدين الإسلامي ، وبالإضافة إلى ذلك كان للمسجد وظيفة مهمة في العصر الإسلامي المبكر وهي أنه كان بمثابة مركز للحكم والإدارة والتشاور والدعوة ، وكان مكانا للعلم والتدريس والإفتاء أي كل ما يتعلق بأمور الدين والدولة ومن ثم ارتفعت مكانة المسجد عند المسلمين ، وكان لعمارة المسجد النبوي الشريف الذي وضع أساسه النبي ﷺ في المدينة المنورة بعد هجرته إليها (٦٢٢م) أثر كبير في نشأة فن العمارة والفن الإسلامي حيث أنه ﷺ ، بتأسيسه لهذا الجامع قام بوضع المخطط الأساسي لبناء المساجد الإسلامية

في المستقبل[١٢] . وقد تطورت عمارة المسجد النبوي الشريف بعد ذلك وفق التخطيط الذي وضع في عهد الرسول ﷺ وظل هذا المسجد هو النموذج لكل المساجد الجامعة المبكرة في البلاد الإسلامية خلال القرون الأربعة الأولى بعد الهجرة ، ومن أمثلة ذلك مساجد البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ، بل أنه مع تطور طرز العمارة الإسلامية وظهور أكثر من تخطيط للمساجد ظل هذا الشكل أو التخطيط مستخدما في تشييد المساجد عبر العصور الإسلامية المختلفة . وقد تطورت عمارة المسجد بعد ذلك من حيث التخطيط والزخارف ، بالإضافة إلى ظهور عناصر معمارية ألحقت بالمساجد وصارت أساسية بها كالمآذن والمحاريب والمنابر والمداخل التذكارية ، وكذلك عناصر وأساليب زخرفية كثيرة هندسية ونباتية وكتابية وقد انتقلت الكثير من العناصر المعمارية والزخرفية من المسجد إلى بقية أنواع العمائر الإسلامية سواء الدينية أم المدنية . ونتيجة للاهتمام الشديد بالمساجد ومحاولات المسلمين المستمرة لتجميلها وصيانتها باستمرار لارتباطها بتأدية الشعائر الإسلامية ازدهرت الفنون الزخرفية والتطبيقية الإسلامية الأخرى المرتبطة بالعمارة مثل صناعة التحف المعدنية والخشبية والزجاجية وذلك لصنع وعمل ما تحتاج إليه المساجد والجوامع من أدوات وقطع أثاث ووسائل إضاءة وأبواب وشبابيك وغير ذلك من أجل تأدية وظيفتها على أجمل وجه[١٣] .

وقد أشرنا من قبل إلى تميز الفن الإسلامي بخصوصية ميزته عن بقية الفنون الأخرى، وهي الوحدة الفنية أو الشكل العام والخصائص والأساليب الفنية الرئيسية الخاصة به والتي تعود في المقام الأول إلى وحدة العقيدة ومبادئها التي التزم بها الفنان المسلم في مختلف أنحاء العالم

---

(١٢) عفيف بهنسي : الفن العربي الإسلامي ، ط٢ ، دمشق ١٩٩٧ م ، ص٢٥ –٢٦

(١٣) حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٩م ، ص٣٥

الإسلامي ، أيضا كان للغة العربية دورها في هذه الوحدة الفنية في الفن الإسلامي حيث كانت الأبجدية العربية أو الكتابة العربية بمثابة مادة أساسية لزخرفة العمائر والتحف التطبيقية الإسلامية في شتى بقاع العالم الإسلامي وأصبحت الأبجدية العربية تستخدم في كل لغات الأمم الإسلامية كالفارسية والتركية والأوردية وغيرها ، وقد سبق أن أشرنا إلى أسس ومقومات الفن الإسلامي من قبل ، وعلى الرغم من الوحدة والخصوصية التي ميزت الفن الإسلامي نجد أنه حدث تطور للأساليب الفنية عند المسلمين مما حزا بعلماء ومؤرخي الفن الإسلامي أن يقسموا هذه الأساليب والأشكال الفنية إلى طرز فنية مختلفة وفقا للدول الإسلامية التي أنتجت هذه الفنون، فهناك الطراز الأموي والعباسي والأندلسي والسلجوقي والمغولي والتيموري والصفوي والهندي المغولي والتركي العثماني ، أيضا تفرع من هذه الطرز العامة الرئيسية بعض الطرز الثانوية، وفي الحقيقة فإن كثرة الطرز الفنية الإسلامية تعود إلى تعدد أجناس وأعراق الشعوب الإسلامية، واختلاف بيئاتها ، واختلاف الميراث الحضاري لكل إقليم أو دولة ، أيضا المواد الخام المتاحة واختلافها من مكان إلى آخر، وكان هناك مؤثرات حضارية وفنية تؤثر في فن أو طراز فني بعينه ولا تتوفر لغيره من الطرز الفنية الأخرى ،وأخيرا هناك عوامل المناخ والبيئة وكان لها تأثيرها أيضا، كل هذه العوامل والمؤثرات مجتمعة كان لها دورها البارز في الطرز الفنية الإسلامية .

وسبق أن أشرنا إلى أن الشعوب الإسلامية في أغلبها كانت تمتلك حضارات وفنون عريقة قبل الإسلام ، وعندما دخلت في الإسلام وأصبح لها فنها أو طرازها الفني الإسلامي الخاص بها ظهر أثر تلك الفنون السابقة في فنها الإسلامي ، وبعبارة أخرى حدث نوع من الامتزاج بين التقاليد الفنية الموروثة وتقاليد فنية جديدة وافدة كان يحكمها مجموعة

مبادئ وقيم إسلامية ، كل ذلك أدى إلى تنوع طرز الآثار والفنون الإسلامية ، من إقليم لآخر ، ولكن كما أسلفنا من قبل هناك إطار عام يربط أو يجمع بين هذه الطرز الفنية لأنها في النهاية تنطوي تحت راية فن واحد امتد على مساحات شاسعة من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، ومن جنوب أوربا وآسيا الصغرى شمالا حتى أواسط أفريقيا جنوبا . وكان أول هذه الطرز الفنية الإسلامية الطراز الأموي (نسبة إلى الدولة الأموية) وتميز هذا الطراز بأنه كان طرازا دوليا إن جاز التعبير لأنه انتشر على مساحة كبيرة حيث وصلت الفتوحات الإسلامية إلى أقصى امتداد لها خلال العصر الأموي ، في بلاد ما وراء النهر ، والتركستان ، وشمال أفريقيا والأندلس . ونلاحظ ظهور تأثيرات بيزنطية وهلينستية في المنتجات الفنية الأموية ، ويظهر ذلك جليا في تخطيط بعض العمائر الأموية وزخارفها ، ويعد هذا الأمر شيئا طبيعيا لأن عاصمة الأمويين نفسها كانت في دمشق بإقليم سوريا أحد أهم أقاليم الإمبراطورية البيزنطية قبل الفتح الإسلامي ، بالإضافة إلى الميراث الحضاري والفني الضخم السوري وتنوع مصادره ، فكان من الطبيعي أن يظهر تأثير تقاليد وميراث هذا الإقليم على فنون الأمويين الجديدة (الإسلامية) ، وظهر ذلك في عمائر الدولة الأموية في دمشق والقدس وبادية الشام وغيرها من أقاليم الدولة الأموية.

وهناك الطراز العباسي (نسبة إلى الدولة العباسية) الذي ظهر إلى الوجود بعد سقوط الدولة الأموية وانتقال مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد بعد قيام الدولة العباسية، وكما هو معروف كانت العراق والأقاليم المجاورة لها من ناحية الشرق خاضعة للتقاليد الفنية الإيرانية بطرزها المتنوعة وخاصة الطراز الساساني ، أيضا كان اعتماد العباسيين على الفرس في قيام دولتهم وفي إدارتها ، وكذلك مشاركة الصناع والفنانين

الإيرانيين في حركة البناء والتشييد في عاصمة الدولة العباسية الجديدة (بغداد) ، كل ذلك كان له أثره الواضح في ظهور تأثيرات فنية وأساليب إيرانية ساسانية في الطراز الفني العباسي خاصة في العصر العباسي الأول ، وكما كان الطراز الأموي دوليا ، كان أيضا الطراز العباسي طرازا دوليا حيث ورثت الدولة العباسية أملاك وأقاليم الدولة الأموية وبالتالي انتشر طرازها وتقاليدها الفنية على كل أقاليم الدولة (باستثناء الأندلس) .

وبعد أن ضعفت الخلافة العباسية، أخذت بعض الأقاليم والولايات تتطلع إلى الاستقلال عن مركز الخلافة وبالفعل ظهر إلى الوجود الخلافة الفاطمية في مصر ، وكذلك الخلافة الأموية في الأندلس ، وبطبيعة الحال كان لكل من هاتين الخلافتين فنونها وطرزها الخاصة بها وهي التي عرفت بالطراز الفاطمي، وهو الطراز الفني الذي ساد مصر خلال العصر الفاطمي (٣٥٨-٥٦٧هـ)، والطراز الأموي الأندلسي (استمر حتى القرن ٥هـ/ ١١هـ).

وتوالى ظهور الطرز الفنية نتيجة تغيّر الظروف السياسية والاجتماعية وانهيار وسقوط دول وأسر حاكمه وقيام دول جديدة ، فظهر الطراز الأيوبي بعد قيام الدولة الأيوبية (٥٦٧-٦٤٨هـ) ، وأعقبه الطراز المملوكي في مصر وبلاد الشام (٦٤٨-٩٢٣هـ) . وهناك بعض الطرز الفنية المهمة التي قامت في شرق العالم الإسلامي مثل الطراز السلجوقي الذي كان له طابعا دوليا حيث سيطر السلاجقة الأتراك على إيران وأفغانستان والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى واستمرت سيطرتهم حتى القرن ٧هـ/ ١٣م .

وهناك طرازا فنيا آخر قام على أكتاف الأتراك أيضا وهو الطراز العثماني، وكان له صفة الدولية نظرا لاتساع رقعة الدولة العثمانية في آسيا الصغرى وأوربا، وبلاد الشام والعراق وشمال أفريقيا (البلاد العربية)، وكان الطراز العثماني أطول الطرز الفنية عمرا حيث عاشت الدولة العثمانية نحو ستة قرون منذ قيامها كإمارة صغيرة في أقصى شمال غرب الأناضول (آسيا الصغرى) سنة ١٢٩٩م حتى انهيارها بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وإعلان الجمهورية التركية الحديثة سنة ١٩٢٣م .

بالإضافة إلى الطرز السابقة وهي طرز فنية رئيسية كان هناك طرز إسلامية أخرى ولكن لم يقدر لها الانتشار ولم تأخذ صفة الدولية ومن ذلك طرز إيران الفنية بعد انتهاء الحكم السلجوقي وطرازه ونعني بذلك الطراز المغولي الأيلخاني (القرن ٨هـ / ١٤م) ، والطراز التيموري (القرن ٩هـ/ ١٥م) ، والطراز الصفوي (القرن ١٠-١٢هـ/ ١٦-١٨م) ، والطراز القاجاري (القرن ١٣هـ/ ١٩م) ، وهناك أيضا الطراز الهندي الإسلامي ، وكان في بلاد الهند وهو طراز فني متأثر بشكل كبير بالطرز الفنية الإيرانية ولكن بشكل أو بصبغة هندية محلية ، وسوف نفرد فصلاً كاملاً فيما بعد للحديث بالتفصيل عن بعض الطرز الفنية الإسلامية التي كان لها دورها الكبير في الفن والحضارة الإسلامية .

وأخيرا نود أن نشير إلى أمر هام ونحن بصدد الحديث عن الفن الإسلامي وطرزه المتنوعة وهو أن هذا الفن وطرزه لم يكن يوما فنا جامدا أو منعزلا عن الفنون الأخرى المعاصرة له ، بل كان على اتصال بهذه الفنون وأخذ منها مثل فنون الصين وفي بعض مراحله بالفنون الأوربية وكذلك أثر الفن الإسلامي في غيره من الفنون خاصة بعض

الفنون الأوربية وكان ذلك عن طريق أسبانيا وصقلية حيث انتقلت تأثيرات فنية إسلامية عبرهما إلى أوربا ، أيضا كان الفن العثماني ممـــثلا للفـــن الإسلامي في مراحله المتأخرة على اتصال بالفنون الأوربية وقـــد تـــأثر ببعض عناصرها المعمارية والزخرفية لا سيما في القرنيين الثامن عشـــر والتاسع عشر الميلاديين [١٤].

---

(١٤) أنظر الفصل الثالث من هذا الكتاب .